

معارض الكتاب العربية : "حراج" كبير للبضائع الأجنبية و حرج أكبر للتقافة العربية !

د. عصام منصور
أستاذ المكتبات و المعلومات المساعد
قسم علوم المكتبات و المعلومات
كلية التربية الأساسية - الكويت

المقدمة:

يعد معرض الكتاب book fair في أي أمة بمثابة المؤشر المساعد في قياس الحالة الثقافية و الادبية التي تعيشها و تمر بها، وهو أيضا انعكاس واضح لازدهار و رواج حركات و عمليات التأليف و النشر و التوزيع التي تتم في الامة. يكاد يكون لكل دولة معرضها الخاص بالكتاب لعرض إنتاجها من الكتب التي تمثل جميع المجالات الحياتية، بجانب إتاحة الفرصة لعرض إنتاج الدول الأخرى أيضا من كتب تترجم فلسفتها و بيئتها و حركتها العلمية و الثقافية، مما يساعد في معرفة الدول و الشعوب ببعضها البعض عن طريق ما تتضمنه هذه الكتب، سواء تلك الكتب الصادرة منهم أو تلك الصادرة عنهم. يُنظر دائما إلى معارض الكتب على أنها ذلك الملتقى المعرفي و الثقافي و الأدبي الكبير الذي يجمع من كل حدب و صوب العلماء و المفكرين و المبدعين و الأدباء و الباحثين، و حتى العوام من الناس، في مكان واحد تذوب فيه الفوارق العلمية و حتى الشكلية بينهم، و هو بذلك أيضا فرصة حقيقية لتلاقي القاصي و الداني، و الجمع بينهما في مشهد ثقافيا تتلاشي فيه الحواجز بينهما و يجمعهما الفكر لمناقشة كتاب ما، أو قضية ما، أو حتى هم ما، مما يثري بذلك المعرفة بينهما، و من ثم ولادة صداقة و تعاون تحت سماء المعرض.

على صعيد آخر، يعد معرض الكتاب مقياسا هاما يتبعه المهتمون و المعنيون بإنتاج و نشر و توزيع الكتاب، كالناشرين و غيرهم، للوقوف على اهتمام كل من الدولة و الشعب بالكتاب، الأمر الذي يساعدهم على التفكير بالخوض أو المشاركة فيه من عدمه. فالأمة التي تقرأ وتهتم بالقراءة، نجدها تهتم بكل ما من شأنه المساعدة في ذلك، كإهتمام بصناعة القراءة، على سبيل المثال، و ما تتطلبه هذه الصناعة من أدوات و عمليات و خدمات عرض و تسويق و ما شابه ذلك، و لا شك أن ذلك يساعد أفرادها في الانخراط في "مجتمع أقرأ لتتعلم"!

على كل حال، لا تقتصر المعارض - كما قد يُفهم من أسمها - على عرض الكتب فقط، بل تتعدى هذا المفهوم الضيق - هكذا يجب أن يكون - لتشمل كل الوسائل المتاحة و الممكنة من تنويه و إعلان و خدمات وما شابه ذلك، و لا تُقام المعارض فقط لعرض الكتاب، بل غالبا ما يصاحبها فعاليات و أنشطة و ندوات ثقافية و مهرجانات فنية متعددة مناسبة لبيئة الكتاب و خادمة له من حيث التعريف به و أهميته و تقديره.

أثناء بعثتي الدراسية في الولايات المتحدة الأمريكية للحصول على درجتي الماجستير و الدكتوراه، و كذلك أثناء عملي كأستاذ مساعد في قسم علوم المكتبات بكلية التربية الأساسية بدولة الكويت، و كذلك أثناء زيارتي إلى بعض الدول العربية، خاصة دول الخليج العربية، فضلا عن زيارتي المتكررة إلى الوطن (جمهورية مصر العربية)، كانت هناك فرص - و إن كانت قليلة - لزيارة معارض الكتاب بتلك الدول. كان لكل زيارة ظروفها الخاصة، خاصة من ناحية التوقيت، و إن كان الغرض و الهدف منها واحدا. قبل البدء، أود الإشارة إلى أنني لا أقوم هنا بعقد مقارنة بين ما رأيته من معارض للكتاب بتلك الدول، ليس لضيق الوقت أو لقلّة المساحة المخصصة للكتابة أو حتى لضعف القدرة علي المقارنة، و إنما لأسباب ليست بخافية علي الجميع، تتمثل في فلسفة و ثقافة و ظروف كل دولة في عرض ما لديها من كتب، و كذلك في عرض ما يرد إليها من كتب خاصة بالدول الأخرى. كذلك، علينا أن نعرف، أن هناك عنصران أساسيان للمقارنة بين شيئين أنيين، أو حتى أكثر، إلا و هما التشابه و الاختلاف، و لا تتحقق أي مقارنة حقيقة بدونهما أو أحدهما علي الإطلاق، فإن عرضنا لعنصر التشابه بين معارض الكتاب الموجودة بالولايات المتحدة الأمريكية و مثيلاتها بالدول العربية، على سبيل المثال، لوجدنا قليل من التشابه و كثير من الاختلاف. يرجع المختصون و المعنيون بأمر معارض الكتب الأجنبية بوجه عام و العربية بوجه خاص قلة هذا التشابه و كثرة هذا الاختلاف إلى ما يُعرف بـ "ثقافة" و "صناعة" عرض الكتاب، اللتان تؤثران بقوة في عملية الإقبال عليها، و من ثم في عملية اقتنائها، خاصة لو أننا عرفنا أن بعض الدول تعتمد اعتمادا كبير على هذه المعارض لتسويق و بيع الكتب بها، كجمهورية مصر العربية، على سبيل المثال، إذ أن 70٪ من حجم مبيعات الكتب فيها يتم عبر معرض عاصمتها للكتاب، معرض القاهرة الدولي للكتاب (جريس، 2008)، هذا إن لم يكن 80٪، كما يؤكد في ذلك الدكتور ناصر الأنصاري رئيس المعرض (جريدة الأهرام، 2008). مازال هناك الكثير من العمل أمام معارض الكتاب العربية للقيام به نحو التعامل مع عرض أوعية المعلومات المختلفة، و لاسيما سيدها، الكتاب، حتى تصل إلى أن تأخذ كنموذجاً يُحتذى به في التمثيل و الاستشهاد "الجيد"!

معارض الكتب ... وقفة عند المسمي و التبعية !

تختلف - بصفة عامة - مُسميات معارض الكتاب من معرض لآخر، خاصة تلك التي تُعقد تحت تغطية دولية. لذلك، ليس من المستغرب أن تدرج كثير من هذه المعارض لفظة "دولي" في المسمي الخاص بها، كـ "معرض القاهرة الدولي للكتاب" و "معرض فيينا الدولي للكتاب" على سبيل المثال. كذلك، تُسمي كثير من هذه المعارض بأسماء البلدان التي تُعقد بها، كـ "معرض أمريكا الدولي للكتاب"، أو بأسماء العواصم، كـ "معرض مسقط الدولي للكتاب" و "معرض الدوحة الدولي للكتاب"، أو بأسماء المدن الكبرى، كـ "معرض فرانكفورت الدولي للكتاب"، و إن كانت هناك بعض المعارض لا تسلك مثل هذا المسلك، و إنما سلكت مسلكا آخر، كالأخذ أولا باسم الوعاء نفسه (الكتاب) مع ذكر اسم البلد لاحقا، كـ "المعرض الثقافي الدولي للكتاب في الصين" و "معرض الكتاب العربي بسوريا". بالرغم من الوهلة الأولى لقراءة مسمي المعرض الأخير التي توحي باقتصار هذا المعرض على الكتب العربية فقط دون الكتب الأجنبية الأخرى، إلا أن ذلك ليس بصحيح تماما، إذ أن المعرض يمتد ليشمل و يعرض كتب

أخري غير عربية، و يؤكد ذلك "معرض بيروت العربي للكتاب"، الذي يعد ثاني أكبر معرض للكتاب في العالم العربي بعد معرض القاهرة الدولي للكتاب، علي حد قول بدر الدفاعي سكرتير المجلس القومي للثقافة و الفنون و الآداب بدولة الكويت في مقابلة صحفية له مع نوار فاتهوفا (2007). من الجدير بالذكر، أنه من الممكن أن يكون هناك للبلد الواحد أكثر من معرض واحد للكتاب، كما نري في دولة الإمارات العربية المتحدة، التي يوجد بها معرضين دوليين كبيرين، هما معرض "الشارقة الدولي للكتاب"، و كذلك "معرض أبو ظبي الدولي للكتاب"، و اللذان يُعقدان في شهر واحد، أكتوبر من كل عام! غالباً ما تتبع و تخضع معارض الكتب للإشراف الكامل من قبل الحكومة، فضلا عن رقابة رسمية تصل لحد التدخل بمصادرة كتب ذات توجه مخالف أو معارض لها. هناك جهات و وزارات حكومية معينة يُخول إليها مهمة تنظيم معارض الكتب و الاشراف عليها. من الوزارات الحكومية المخول إليها هذه المهمة في بعض الدول، وزارة الثقافة، كما هو الحال في معرض الدار البيضاء الدولي للكتاب الذي تنظمه "وزارة الاتصال و الثقافة المغربية"، و معرض القاهرة الدولي للكتاب الذي تنظمه "الهيئة العامة للكتاب" التابعة لوزارة الثقافة المصرية، أو وزارة الإعلام، كما هو الحال في معرض البحرين الدولي للكتاب، الذي ينظمه "المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب بالبحرين" التابع لوزارة الإعلام البحرينية. مع ذلك، يوجد عدد ليس بكبير لا يخضع - بصالعربية: - للإشراف الحكومي، كما هو الحال في معرض عمان الدولي للكتاب، الذي ينظمه و يشرف عليه "إتحاد الناشرين الأردنيين"، و معرض بيروت العربي للكتاب، الذي ينظمه و يديره "إتحاد الناشرين اللبنانيين"، و كذلك معرض فرانكفورت الدولي للكتاب الذي ينظمه "إتحاد الناشرين الألمان".

التوقيت و المدد الزمنية لمعارض الكتاب العربية :

من حيث التوقيت، تتركز معظم معارض الكتاب العربية في الفترة من أكتوبر حتى مارس من كل عام. يكفي القول أن شهراً واحداً، كـشهر فبراير، يحتضن ثلاثة من أكبر هذه المعارض، معرض القاهرة و معرض الرياض و معرض الدار البيضاء، للحد الذي يشهد أحيانا تداخلاً بين هذه المعارض الثلاث، الأمر الذي يؤثر بدوره على الناشرين، بكل تأكيد، من حيث استعدادهم و جاهزيتهم للتقليل بين المعرض و الآخر، و ينعكس كذلك سلبي على تواجدهم تواجداً مشرفاً أمام كل من إدارة المعرض و الجمهور. يؤكد الصحفي محمد فريد (جريدة القبس الكويتية) أن اختيار التوقيت مرتبط غالباً بالأحوال و الظروف المادية للجمهور الذي يقصد المعرض، فكلما كان الوقت في الأسبوع الأول من الشهر أو الأسبوع الأخير منه، كلما تضاعفت أعداد الزوار و زادت المبيعات، باعتبار أن الطبقة الواسعة من هذا الجمهور من الموظفين و الطلاب الذين يحصلون على رواتبهم أو مصروفهم في بداية أو نهاية الشهر (فريد، 2008).

من هنا، يؤكد الدكتور يوسف بن عبد الله العليان على ضرورة التنسيق في مواعيد معارض الكتاب المقامة في الدول العربية، إذ يبدأ، على سبيل المثال، معرض الرياض الدولي للكتاب قبل أن ينتهي معرض مسقط الدولي للكتاب، و ينطلق معرض أبو ظبي الدولي للكتاب قبل أن ينتهي معرض الرياض الدولي للكتاب، الذي يتبعه معرض عدن الدولي مباشرة. لا شك أن هذا التداخل في المواعيد مع غياب التنسيق اللازم، يؤثر سلبي على دور النشر و على المهتمين بالكتاب، و حتى علي المتابعة و التغطية الإعلامية، كما يؤثر بدوره على الكتاب نفسه، ذلك أننا في حاجة إلى تواصل دائم مع الكتاب عبر شهور السنة، و أن لا تتركز كثير من المعارض في شهر واحد و تبقي الأشهر الأخرى خاوية من إقامة أي معرض بها (2008). كانت لهذه المشكلة تحرك عُقد بمدينة الرياض السعودية في العشر من فبراير من العام 2006، الذي جاء في شكل ملتقى، سُمي بـ "الاتجاهات

الحديثة في تنظيم معارض الكتاب الدولية". جاء الملتقي، الذي حمل عنوان "اتفاق على تطوير معارض الكتاب العربية و إلغاء الرقابة.. و اختلاف حول التوقيت"، ليناقدش، كما هو واضح من عنوانه، أسلوب عمل و تطوير معارض الكتاب العربية من حيث الشكل و المضمون، و أيضا تقليص دور الرقابة على مطبوعات و معروضات المعارض، بجانب العمل على تجنب ظاهرة "التداخل" التي تشهدها هذه المعارض في توقيتاتها، وذلك لمساعدة الجميع، أفراد و ناشرين، في الاستفادة القصوى من كل معرض يُقام على حده (الهرسان، 2006).

من حيث المدة الزمنية و عدد أيام العرض و كذلك المساحة، تتراوح مدد العرض بمعارض الكتاب العربية من ستة أيام إلى سبعة عشر يوما، أقلها ما نشهده في معرض أبو ظبي الدولي للكتاب (6 أيام)، و أطولها ما نشهده في معرض بيروت العربي للكتاب (17 يوما)، و تتراوح ذلك من حيث المساحة من 2م100 إلى ما يقرب من 2م76000، أصغرها معرض القاهرة الدولي لكتب الأطفال (2م100)، و أكبرها معرض القاهرة الدولي للكتاب (2م76430). التالي، بيان مفصل لمعارض الكتاب العربية من حيث المدد الزمنية - بالتقريب - و مكانها و كذلك مساحتها (مرتبا وفق عدد أيام كل معرض، الأقل فالأكثر) (وزارة التعليم العالي السعودية، 2007):

المساحة	الزمان (ليست فترات ثابتة وإنما تدور حول هذا الوقت)	عدد الايام (تقريبا)	المكان	أسم المعرض
2م15000	النصف الأخير من مارس	6 أيام	أبو ظبي	معرض أبو ظبي الدولي للكتاب
2م100	النصف الأخير من نوفمبر	7 أيام	القاهرة	معرض القاهرة الدولي لكتب الاطفال
2م10000	النصف الأخير من فبراير	10 أيام	الرياض	معرض الرياض الدولي للكتاب
2م18000	النصف الأخير من فبراير	10 أيام	الدار البيضاء	معرض الدار البيضاء الدولي للكتاب
2م16000	النصف الأخير من أبريل	10 أيام	تونس	معرض تونس الدولي للكتاب
2م8500	النصف الأول من أكتوبر (كل سنتين)	10 أيام	عمان	معرض عمان الدولي للكتاب
2م9500	النصف الأخير من أكتوبر	10 أيام	صنعاء	معرض صنعاء الدولي للكتاب
2م7500	النصف الأخير من أكتوبر	10 أيام	دمشق	معرض الكتاب العربي بسوريا
2م8000	النصف الأخير من مارس (كل سنتين)	10 أيام	المنامة	معرض البحرين الدولي للكتاب
2م5000	النصف الأخير من فبراير	11 يوما	مسقط	معرض مسقط الدولي للكتاب
2م10000	نهاية أكتوبر لأوائل ديسمبر	11 يوما	الجزائر	المعرض الدولي للكتاب بالجزائر
2م10000	نهاية ديسمبر لأوائل يناير	11 يوما	الدوحة	معرض الدوحة الدولي للكتاب
2م14000	النصف الأخير من نوفمبر	11 يوما	الكويت	معرض الكويت الدولي للكتاب
2م16000	النصف الأول من ديسمبر	11 يوما	الشارقة	معرض الشارقة الدولي للكتاب
2م76430	نهاية يناير لأوائل فبراير	14 يوما	القاهرة	معرض القاهرة الدولي للكتاب
2م10000	النصف الأول من ديسمبر	17 يوما	بيروت	معرض بيروت العربي للكتاب

مما لاشك فيه، تؤثر المساحات المكانية التي يشغلها أي معرض كتاب في كم المعرض من الكتب و المواد الأخرى المرتبطة به. فعلى سبيل المثال، وصلت مساحة معرض فرانكفورت الدولي للكتاب في دورته الواحدة و الستون، التي عُقدت في العاشر من أكتوبر العام 2007 إلى 2م171790، و هو بذلك يعد أكبر معرض في العالم من حيث المساحة، الأمر الذي ساعد على اشتراك عدد كبير من الدول فيه، وصل في العام نفسه إلى "مائة و عشرة دولة"، و كذلك عدد الناشرين (7448)، و بالتالي انعكس ذلك إيجابا على عدد الكتب التي عُرضت، و التي وصلت لـ 391000، التي كان منها 121000 كتاب عُرض لأول مرة (شبكة النبا المعلوماتية، 2007).

يتردد كثيرا أن معرض القاهرة الدولي للكتاب يعد ثاني أكبر و عددالكتاب على مستوي العالم من حيث المساحة بعد معرض فرانكفورت، إلا أن هذا الأمر في حاجة إلى تصحيح، فإذا كان معرض القاهرة الدولي للكتاب يعد الثاني من بعد معرض فرانكفورت من حيث المساحة (77000 م² تقريبا)، فأين يقع معرض طهران الدولي للكتاب الذي تبلغ مساحته 2م95000، و الذي أشارك في دورته العشرون، التي عُقدت في الأول من مايو للثاني عشر منه، العام 2008. وفقا لإحصائيات المعرض، كان عدد الدول المشتركة "66" دولة و عدد دور النشر "2569" دار نشر. في العام نفسه (2008)، عُقدت الدورة الأربعون لمعرض القاهرة الدولي للكتاب، و لكن بمشاركة "28" دولة فقط، يمثلون "743" ناشر، على مساحة قُدرت وقتها بـ "66000 م²!" (جريدة الأهرام، 2008).

معارض الكتاب العربية: حراج كبير للبضائع الأجنبية و حراج أكبر للثقافة العربية !

يقف رواد معارض الكتاب العربية، خاصة هؤلاء النابهون و المدركون لما يروونه و يدور حولهم، أمام سؤال كبير دائما يرددونه لأنفسهم عن ما إذا كانت معارض الكتاب العربية في حقيقتها سوقا أم معرضا للكتاب؟ يؤكد المهندس إبراهيم المعلم، رئيس إتحاد الناشرين العرب و نائب رئيس الإتحاد الدولي للناشرين و صاحب دار الشروق للنشر في مقابلة له مع الصحفية جهاد فاضل (جريدة الراية القطرية)، أن معرض القاهرة الدولي للكتاب، يعد سوقا أقرب منه إلى معرضا للكتاب، فالسوق هي ذلك المكان المخصص لبيع السلع و المنتجات - قديمة كانت أو حديثة - أما المعرض، فهو ذلك المكان المخصص فقط لعرض الكتب، على أن يتم الاتفاق بين العارض و الراغب في الشراء على الطريقة التي تتم بها عملية البيع، نقدا أو بأي وسيلة أخرى مقبولة. كذلك، سوق الكتب عبارة عن مكتبات وُجدت لبيع الكتب، و في هذه السوق تجد كتبا يزيد عمرها عن عشرات السنين، في حين أن المعرض يُفترض إلا يعرض إلا كتبا حديثة أو نماذج من الكتب الحديثة (فاضل، 2010).

تتجاوز في معارض الكتاب العربية - بطريقة ملفتة للنظر جدا - المطبوعات من الكتب مع مواد و منتجات و بضائع أخرى ليست لها أي صلة بهذه المطبوعات، من قريب أو من بعيد، بل و تتنافس هذه المواد و هذه البضائع مع الكتاب لجذب أكبر عدد من الجمهور، مستعملة بذلك مكبرات صوت ضخمة و شرائط كاسيت منفرة لإضفاء جو من الضوضاء، الذي أعتاد عليها بعض من هذا الجمهور، و أصبح مرتبطا بها عند اشتراكه في أي مناسبة! من هذه المواد، المأكولات المختلفة بأنواعها المتعددة ذات الروائح الشديدة، و كذلك المشروبات المعدنية و الغازية، و أيضا المسليات و الحلويات!!! أذكر إنني لم أتعامل مع إحدى المطاعم المتخصصة و الشهيرة في الأكلة المصرية الشهيرة "الكشري" إلا على أرض معرض القاهرة الدولي للكتاب، و الحال كذلك

مع كثير من زائريه، خاصة الوافدين عليه من أماكن بعيدة، كما لو أننا قد ذهبنا فقط لتلبية نداء المعدة من أكل الكشري، بدلا من تلبية نداء العقل والوجدان من قراءة كتاب ما أو حضور ندوه بشأنه! من المواد أيضا انتشار كبير لبضائع دول جنوب شرق آسيا، كالأجهزة الحاسوبية الصغيرة والقواميس الالكترونية والمفكرات الالكترونية، بجانب البوسترات والإعلانات الضخمة والمختلفة وكذلك أسطوانات الأغاني والأفلام، وأيضا العطور والبخور في مشهد يؤكد أن معارضنا العربية للكتاب أصبحت سوقا للبضائع الأجنبية أكثر منها معارض للكتاب، فضلا عن مزاحمة كثير من الموظفين المتطفلين، كموظفي البنوك، على سبيل المثال، ومحاولاتهم واستمالتهم لرواد المعرض لفتح حساب أو لعرض الخدمات التي يقدمها بنوكهم لهم، هذا بالإضافة إلى الانتشار غير الحضاري لعربات الإسعاف - التي لا نعلم هويتها، عامة كانت أو خاصة، تجارية كانت أو خيرية - تنادي أيضا عبر مكبرات الصوت الضخمة للتبرع بالدم في مشهد غير حضاري لا نجدده في معارض الدول المتحضرة، مرة مقابل كوب من العصير ومرة أخرى مقابل مبلغا زهيدا من المال بطريقة تنم وتكشف عن الاتجار بدم المتبرع! مما لا شك فيه، يتنافى كل هذا مع قدسية المعرض وقدسية المادة التي أنشأ من أجلها وسُمي بها، إلا وهي الكتاب!

للأسف الشديد، لقد باتت معارضنا العربية للكتاب في حالة لا يُرثى لها على كافة الأصعدة، فضلا عن غياب الكثير من ملامحها وأهدافها التي قامت من أجلها. لقد أصبحت ما يشبه بـ "الحراج" الكبير، الذي وسع كل شيء، بدءا من الكتاب نفسه - الذي ضاعت ملامحه بين صخب الأشياء الأخرى - مروراً بالمطاعم ومأكولاتها ومشروباتها شديدة الرائحة والمحلات ومنتجاتها المتعددة وعروضها والبنوك والمستشفيات وموظفيها المتطفلين والباعة الجائلين ومنادو السلع، وانتهاً بالمسولين المتطفلين في مشهد يؤكد - بحق - كم باتت معارضنا العربية للكتاب "سويقة" تُقام وتنفض سنويا والخاسر الأكبر فيها هو الكتاب، الأمر الذي وضع الثقافة العربية في حرج شديد أمام الثقافات العالمية الأخرى، ورجع بيهبتها وبمكانتها إلى الخلف بعد أن كانت أحدي أقدم وأهم وأكبر وأعرق الثقافات التي شهدها الماضي "البعيد"!

في مقابلة له مع الصحفية إستبرق أحمد (جريدة القبس الكويتية) بشأن معارض الكتاب العربية بصفة عامة ومعرض الكويت الدولي للكتاب، يؤكد الناقد والصحفي علاء الجابر أن ما ينقص معارضنا العربية أن تغير جلودها من تلك الحانات و "الدكاكين" - على حد استخدامه - التي تباع أوراقا مضمومة بأغلفة زاهية إلى أجنحة للنقاش والمتعة والحوار، ينقصها كذلك أن تتحول إلى احتفالية حقيقية تحتفي بها الدولة كلها على اختلاف طوائفها وتوجهاتها، لا أن تنزوي في قاعات بائسة نائية لا يعلم ولا ينعم بها إلا قلة من الناس، ينقصها كذلك الالتحام الحقيقي مع الناس وجذبهم واستقطابهم بكل الطرق والوسائل الممكنة إلى القراءة والإطلاع وخلق علاقة فعلية مع الكتاب (أحمد، 2009). وبشهادة شاهد من أهلها، يؤوبوق: اتب الاردني موسي الحوامدة (2008) بأن معرض عمان العربي للكتاب ما هو إلا مكانا لعرض الكتب على الرفوف فقط، و ما أجنحته المختلفة والمنتشرة إلا أكشاك وحانات للبيع فقط ليس أكثر!

معارض الكتاب العربية: سوق وبوق :

”قرب أنفرج أنا مش بهرج... أي حاجة بجنيه و نص“!

”قرب قرب ويلا واحد.. أي كتاب بجنيه واحد ... قرب يا أستاذ قرب يا دكتور“!

في مقابلة لها مع الصحفي جمال القصاص (جريدة الشرق الأوسط السعودية)، تشبه الكاتبة سارة ربيع معرض القاهرة الدولي للكتاب، خاصة في دورته الثانية و الأربعون لعام 2010، بسوق الجمعة الشعبي الشهير في القاهرة، حيث تزامم المعرض السلع التجارية والمنتشرة في المعرض بشكل مبالغ فيه، وذلك على حساب عرض الكتب والمجلدات، فنشاهد أكشاكاً صغيرة تباع فيها المأكولات والمشروبات بشكل مخيف، وتتنوع ما بين المشويات الطازجة والدجاج المقلي والبيتزا، وفي بعضها تجد ركنا مخصصا للمأكولات الشامية إرضاء للناشرين العرب القادمين من بلاد الشام كسوريا و لبنان. أما عن سور الأزيكية، فترى سارة ربيع، أنه تحول إلى سوق عشوائية بالفعل، فالنداءات على الكتب تخترق الاذن وبنغمات متفاوتة من قبيل: «قرب قرب ويلا يلا أي كتاب بجنيه واحد، قرب يا أستاذ قرب يا دكتور». مؤيدا لها، يؤكد الدكتور يوسف العليان (2008) – متهكما – بأن الكتب التراثية و كذلك المجلات و الصحف القديمة المنتشرة بكثرة في هذا السور ”سور الأزيكية“، إنما تُباع بالكيلو في مشهد يوحي بتدني التعامل مع الكتاب، خاصة القديم الذي يحمل في نفوس الكثير منا مكانة كبيرة، فضلا عن ما يحمله من حميمية عظيمة!

يحزن المرء – للأسف الشديد – عندما يري معارضنا العربية للكتاب و قد باتت مسرحا و مرتعا للتسكع و التنزه، الأمر الذي باعد بينها و بين ما وُضع لها من أهداف ثقافية جلييلة. يري الكاتب السعودي الدكتور جميل مغربي إن فكرة إقامة المعارض فكرة استهلاكية، تستغل نزعة حب التسكع والنزهة والإغراء على الشراء، الموجودة لدي الكثير من الشعوب العربية، لمجرد اقتناء مجموعة من الكتب، وقذفها على أحد رفوف المكتبة دون فائدة علمية، بل ربما بذلك نحجب الفائدة عن عالم أو باحث يسعى إلى الحصول عليها. ولذلك تقتصر فكرة المعارض على دول العالم الثالث، أو الدول النامية. عكس ما يتوهمه كثير من الناس، فإن فكرة معارض الكتاب التي تتفاخر الدول العربية بإنجازها، تبدو – كما يتصور مغربي – فكرة متخلفة و بدائية في زمن إذابة الحواجز و تحطيم الحدود، والغزو المعرفي إلى غرفة مكتبك عبر زر الكمبيوتر. إن فكرة معارض الكتاب تعيدنا إلى عصر التدوين على الاحجار والجلود، ونقلها من موضع إلى موضع، لأنها ببساطة الطريقة الوحيدة التي لا يتوفر سواها لنقل المعلومة (مغربي، 2010).

تنظيم معارض الكتاب العربية: عندما يغيب الفكر و التخطيط و تعتلي العشوائية القمة !

يعد تنظيم المعارض – أي كانت طبيعتها وبيئتها و حجمها و الهدف منها – حرفة و مهنة لم تألفها الدول العربية على النحو الذي نراه في دول أجنبية أخرى، و نري هذا جيدا و بوضوح عندما تستعين الدول العربية – بصورة تكاد تكون دائمة – بخبرات الدول المتقدمة في إقامة و تنظيم المعارض، و كذلك الاحتفاليات الثقافية و العسكرية و الرياضية الكبرى. أن ما يُطلق عليه ”ثقافة العرض“ بصفة عامة و ”ثقافة المعارض“ بصفة خاصة، ما هي إلا صناعة كاملة يُطلق عليها ما يُعرف أيضا بـ ”صناعة العرض“، تلك الصناعة المؤلفة من آليات عمل منظمة و مرتبة على نحو يضمن لها تحقيق الهدف الموضوع و المرجو تحقيقه. فلا تقتصر

المعارض المتخصصة، كعرض الكتاب هنا على سبيل المثال، على التفكير في عرض الكتاب فقط بهدف بيعه أو تصفحه، وإنما التفكير أيضا في كل ما من شأنه أن ييسر الوصول لهذا الكتاب من طُرُق و مواصلات، فضلا عن التفكير في إتاحة الخدمات الأساسية المساعدة والمكاملة في عملية الوصول، كتوفير ساحات لانتظار سيارات الجمهور، والسماح لذوي الاحتياجات الخاصة بالدخول بسياراتهم المجهزة في حال عدم توفير - دائما لا تعرف المعارض العربية ما يُعرف بـ "ثقافة خدمة ذوي الاحتياجات الخاصة" - سيارات تحرك مجهزة لهم، كذلك إبراز معالم ومباني المعرض وأجنحته وسراياته المختلفة للجمهور بوضع العلامات الإرشادية الدليلية الواضحة ومتعددة اللغات، وذلك لضمان الوصول إلى الكتاب المحدد والقاعة المحددة، ومن ثم الاقتناء الآمن له، أو حتى التصفح الجيد له. على كل حال، تنم الطريقة التي يتم بها عرض الكتاب عن فكر وخبرة صاحبها في جذب واستقطاب القارئ، فتساعد هذه الطريقة بما لا شك فيه إلى فهم جيد لمحتوي الكتاب فضلا عن تقديره. في مقابلة له مع الصحفي أحمد حميدة (جريدة القبس الكويتية)، يؤكد الروائي فؤاد قنديل أن أكثر السلبات الملحوظة والمموسة بشدة في معرض القاهرة الدولي للكتاب على جميع مدار دوراته - على حد قوله - التي وصلت لأثنين وأربعون دورة حتى الآن، هي غياب العلامات الإرشادية اللازمة بأماكن دور النشر، فضلا عن تواجد أمني مكثف ومبالغ فيه، قد شوه بعرباته ومدرعته ومتاريسه الحديدية (!؟) الغرض الثقافي الذي من شأنه أقيم هذا المعرض "الدولي" الكبير (حميدة، 2010)! بالرغم من أن المعرض حدث ثقافي بحت ورواده مثقفون يبحثون عن الجديد في عالم الفكر والنشر، إلا أنه قد ارتبط بشدة بمشهد سيارات الأمن المركزي التي تحاصر مداخله ومخارجه المتعددة، مع انتشار كبير لهؤلاء المخبرون السريون وانتشار أكبر لأجهزة الاتصال اللاسلكي التي يتباهي بها الضباط ويعملون على إظهارها بطريقة تكشف عن رغبتهم في إعلان أن "الأمن مستتب" في مشهد، قلما نراه في معارض الكتاب الأجنبية، يوحي كم بات المعرض ثكنة عسكرية محصنة، هذا بجانب مشهد التفتيش "الذاتي" المهين للجمهور، الذي ضايق الكثير منه، مما أوقع بعضه في مشادة كلامية مع المفتشين بضرورة احترامهم لذاتية وخصوصية رواد المعرض وزائريه، تقديرا على الأقل لهدفهم الثقافي النبيل الذي من أجله قد قدموا لزيارة المعرض! تحت عنوان "في معرض الكتاب .. الأمن قبل الكتاب و فوق المثقفين"، تؤكد الصحفية سارة سند (جريدة اليوم السابع المصرية) بأنه لم يكن بخُذ عكاشة [وزير الثقافة المصري الذي عهد إليه الرئيس المصري جمال عبد الناصر مهمة قيام معرض القاهرة الدولي للكتاب، العام 1969] أن يكون هذا المعرض الثقافي في الأساس، مكانا تتحكم في فتحه وإغلاقه مباحث أمن الدولة، تارة بين مصادرة الكتب، وتارة أخرى بين الندوات الثقافية والسياسية (سند، 2009). كما سبق، نرى كما لو أن الكتاب صار العدو الحقيقي للأمن، فجهز له العدة لمحاصرته ولتخويف وترهيب مرتديه وزائريه!

في زيارته لمعرض القاهرة الدولي للكتاب، لخص الكاتب محمد سيد بركة (موقع "مفكرة الإسلام" الإلكتروني) سوء تنظيم المعرض تحت عنوان "تخبط وعشوائية ورحلة عذاب"، فيقول: "مهالز معرض الكتاب هذا العام [2007] مستمرة.. يتزايد الزحام .. و تعم الفوضى أرجاء المكان.. الجمهور تائه .. الكل يسأل ولا أحد يجيب .. غياب تام للوحات الإرشادية .. العارضون مستاءون من التنظيم، فالأماكن المخصصة لهم ضيقة والأرفف متهالكة والإضاءة سيئة" (بركة، 2007). في مسألة التنظيم أيضا، تؤكد الطحاوي (2008) أن حدثا بحجم معرض الكتاب يُمكن أن يُوظف بطريقة أو بأخرى لتحسين صورة القراءة لدي الأفراد، و التأكيد على أهميتها، لكن في ظل وجود التنظيم السيئ، وكذلك الندوات التي يغلب عليها الحس الحكومي ومهادنة تيارات معينة، فقد المعرض الكثير من بريقه ورونقه، و تشاطرها أيضا المترجمة مروى صبري في مقابلة لها مع الصحفي جمال القصاص، بأن معرض القاهرة الدولي للكتاب كم كان سيئا على مستوى التنظيم، فهو - على حد تعبيرها -

كـ "المولد" الذي يتبته فيه المرء في ظل عدم وجود أي دليل إرشادي لدور النشر المشاركة و كذلك للقاعات التي تشارك فيها، فضلا عن دليل لأماكن عقد الندوات الثقافية (القصاص، 2010). لا يقف الأمر عند تنظيم المعرض ذلك التنظيم العادي، إذ يؤكد المهندس إبراهيم المعلم رئيس إتحاد الناشرين العرب و نائب رئيس الإتحاد الدولي للناشرين و صاحب دار الشروق للنشر، كم أن معرض القاهرة الدولي للكتاب، الذي يعد الثاني بعد معرض فرانكفورت الدولي للكتاب كما ذكرنا، سوقا كبيرة و مهمة للكتاب، لكن يُعاب عليه تنظيمه، الذي يتسم باللاعصرية، و كذلك خلوه من الجاذبية، بجانب افتقاده لأي نوع من مظاهر التطور، و قد يكون هذا ما دفعه للمطالبة بدراسة تحويله إلى شركة مساهمة غير محملة بأعباء و قيود البيروقراطية، فلا يوجد — على حد علمه — بالعالم كله ما يُعرف بـ "الهيئة العامة للكتاب"، فمعرض فرانكفورت، كما يؤكد، شركة مساهمة لا تستهدف الربح، و لكن العائد المادي من المعرض يُستخدم جزء منه لتطويره، و الجزء الأخر في تشجيع الدول الصغيرة للمشاركة في المعرض (الشروق، 2010).

دليل آخر على عدم التنظيم الجيد الذي تشهده معارضنا العربية للكتاب، ما قامت به إدارة معرض مسقط الدولي للكتاب في دورته الثانية عشر، الذي عُقد في فبراير من العام 2007 بالاعتذار لأحدي و ثلاثون دار نشر — بعد أن تم قبولها بالفعل — و ذلك بعد أن تبين لإدارة المعرض عدم مقدرته على استيعاب هذه الدور، و هذا إنما يدل بوضوح على القصور الكبير الذي شهده تخطيط و تنظيم هذا المعرض، بالرغم من أن تنظيم إدارة المعرض يأتي من قبل ثلاث جهات حكومية كبرى (وزارة الإعلام، وزارة التراث و الثقافة، جامعة السلطان قابوس)، الأمر الذي يحمله مسؤولية أكبر، الأمر الذي يعني أيضا أن مستواه لم يكن بحجم و ثقل تلك الجهات الثلاثة الكبرى!

لا يقتصر فشل المعارض العربية للكتاب على التنظيم المادي فقط، بل أمتد ليشمل التنظيم الإداري أيضا، فليس أدل من ذلك على الاعتذار الذي قدمه الكاتب الفرنسي الكبير جان ماري لوكليزيو، و الحائز على جائزة نوبل في الآداب، بشأن الحضور و المشاركة في الدورة الحادية و الأربعون لمعرض القاهرة الدولي للكتاب، العام 2009، بسبب تأخر دعوة الحضور له، التي لم تصله إلا قبل بدء المعرض بأيام قليلة، الأمر الذي أجبره عن الاعتذار و ذلك لارتباط أجدته بكثير من الاجتماعات و السفريات التي لم يستطع إلغاؤها أو حتى التفكير في إرجائها نتيجة دعوة مفاجئة أتت له! (عبد الرحمن، 2010).

من صور التنظيم السيئ التي تشهده معارضنا العربية للكتاب، حدوث كثير من التخبط و الارتباك، فكثيرا ما تقوم إدارة معرض القاهرة الدولي للكتاب، على سبيل المثال، بتمديد فترة المعرض أيام أخري بعد انتهاء الفترة المحددة له، و خير مثال علي هذا ما قامت به الإدارة بتمديد فترة المعرض في دورته الـ 42 التي عُقدت في السابع و العشرون من شهر يناير 2010 خمسة أيام أخري (نظرا لإخفاق المعرض في تحقيق نسبة معقولة من المستقبلين وبالتالي أيضا في نسبة المبيعات و ذلك لغيابهم لظروف البرد و الامتحانات و مباريات كأس الأمم الأفريقية، التي غالبا تُعقد في هذه الفترة كل سنتين!)، فبدلا من انتهائه في السابع من فبراير من العام نفسه كما كان محدد له سلفا، انتهى المعرض في الثاني عشر من فبراير 2010، و هذا مما لا شك فيه يعبر عن مدي القصور البالغ و الواضح في التصور المستقبلي لإدارة المعرض، فضلا عن مدي العجز الشديد المائل في رؤيتها في التعامل مع المستجدات، خاصة و أن كثير من الناشرين، خصوصا العرب، لم يستفيدوا من فترة التمديد هذه، لأنهم — ببساطة شديدة — كانوا قد أغلقوا أجنحتهم الخاصة بهم في المعرض في الموعد الرسمي لانتهائه، و ذلك لارتباطهم بمواعيد سابقة خاصة بمعارض أيضا تلي المعرض "معرض القاهرة"، كمعرض الرياض الدولي للكتاب و معرض الدار البيضاء الدولي للكتاب. في الحقيقة، من

الصعب أن يُنظم معرض كبير في حجم معرض القاهرة الدولي للكتاب في ذروة فصل الشتاء، حيث البرد القارس و الشديدي، فضلا عن هطول الأمطار التي يعاني منها كل من الناشرين و الباعة، خاصة هؤلاء الباعة الذين يعرضون معروضاتهم من الكتب في العراء، كما نري ذلك بوضوح في الجزء الخاص من المعرض بسور الأزبكية، و كذلك الجمهور أثناء تنقله بين أروقة المعرض المتسمة بالبعد بين بعضها البعض، فضلا كذلك عن توقيت المعرض، الذي يأتي في الأسبوع الأول من امتحانات الطلاب (الجمهور الغالب للمعرض) بالمدارس و الجامعات، فضلا أيضا عن توقيته أثناء مباريات كأس أمم أفريقيا، التي كم تجبر كثير من المصريين و العرب و الأفارقة أيضا على ملازمة بيوتهم و الاستمتاع بها، بجانب تجنبهم لبرودة الطقس الشديدة. فبلا شك، تؤثر مثل هذه العوامل تأثيرا كبيرا في حجم زيارة المعرض و الإقبال عليه، و من ثم في حركة البيع و الاقتناء، و هذا ظهر بوضوح في دورة المعرض الثانية و الأربعون التي شهدت، كما يؤكد حلمي المنمن نائب رئيس الهيئة العامة للكتاب المسؤولة عن المعرض، بأن رواد المعرض في هذه الدورة وصل للمليون و ثمانمائة ألف زائر بعد أن شهد في أحدي دورته السابقة خمسة ملايين زائر.

لقد أدت كل هذه العوامل إلى إصابة معرض القاهرة الدولي للكتاب بالشيخوخة المبكرة، التي أصابت كل ركن من أركانه، الأمر الذي يستدعي ضرورة التفكير في إيجاد و تقديم رؤية جديدة، و إلا فسيستمر المعرض في الانحدار من عام إلى آخر، ففي ظل غياب فلسفة جديدة و واضحة له، سيستمر المعرض في فقدان أكبر للجماهير له على مدار الدورات القادمة، مما يؤثر على مكانته الدولية التي ما زال يتمسك بها (جريس، 2008)!

في حوار للكاتب و الفكر الإسلامي محمد بن حامد الاحمري مع مجلة العصر، يؤكد أنه قد زار معرض القاهرة الدولي للكتاب لأول مرة في دورته الأربعون التي عُقدت في العام 2008، و كم سر من الكم المعروض من الكتب، و لكنه في نفس الوقت أكد أن قدرة المعرض كانت مرعبة حقا، و لا تتناسب بالمرّة مع الحدث و الموضوع، فإذا كانت أهم احتفالية ثقافية عربية تتم في قذارة و "زبالة" — كما أدلي بالنص — تحيط بكل مكان، فأين الثقافة و أين المثقفون، هذا بجانب أن الإضاءة في بعض القاعات كانت ضعيفة، مما أثر بدوره على عناوين الكتب و بالتالي في الوصول إليها، فضلا عن تصفحها جيدا (مجلة العصر، 2008).

أي نوع من الكتب تضمه معارضنا العربية للكتاب ؟

الملاحظ و المراقب منا لما يُعرض من مطبوعات بمعارض الكتاب العربية، يجد أن معظم هذه المطبوعات تركز بشدة على موضوعات معينة قلما وُجد لها مثيلا في المعارض الاجنبية الاخرى. يأتي على رأس هذه المطبوعات الكتاب الديني الذي يشهد طغيانا منقطع النظير و يتصدر المبيعات بنسبة ملحوظة، سواء كان ذلك في شكل ورقي أو إلكتروني، و هذا مرده لإحساس دور النشر بأن هذه الكتب صالحة لكل زمان و مكان، خاصة كتب الركائز منها. من جانب آخر، معظم رواد معارض الكتاب العربية هي من الشباب الذين يمثلون جزءا كبيرا من الشعب، و الذي يمثل جزءا كبيرا منهم أيضا التيار الإسلامي. بجانب ذلك، نجد انتشارا كبيرا جدا لكتب قلما وُجدت في معارض الكتاب الأجنبية الأخرى، ككتب الطبخ و المأكولات و اللوانم و التجميل، و كذلك كتب الأغاني و الألغاز و النكات و كتب رنات التلفزيون المحمول، في دلالة واضحة أيضا، على استجابة الناشرين للموضوعات التي تسيطر على السوق و توجه ذوقه، كموضوع التلفزيون المحمول و أكسسواراته و كل ما يتعلق به! لقد صار "تنوعا عربية. في المعارض من المطبوعات صفة تتحلي بها المعارض الاجنبية للكتاب، و تفتقر إليها — للأسف الشديد — معارضنا العربية!

معارض الكتاب العربية ... مشاكل وتحديات :

هناك بعض المشاكل والتحديات الكبرى التي تواجه معارضنا العربية للكتاب، والتي من شأنها التأثير على فرص انتشارها و الإقبال عليها، إن لم يكن الإيمان بها! التالي مجموعة من أهم هذه المشاكل وهذه التحديات:

الامية :

في أبسط وأوسع معانيها، لا تقتصر الأمية على تلك الأمية الأبجدية، بل هناك الأمية القرائية والثقافية والتكنولوجية، التي تعني إلماما بالأبجدية، ولكن في نفس الوقت تعني جهلا وفشلا وقصورا في القراءة والتعلم والثقافة والاستيعاب والمسيرة التكنولوجية وفهم معطيات العصر الجديدة. على كل حال، تعد الأمية بكافة أشكالها من أخطر المشاكل التي تحد من تقدم العالم العربي وتؤخر من نهضته، إذ تحذر المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (اللكسو) التي تتخذ من تونس مقرا لها، في تقرير لها في العام 2008، بأن الأمية في العالم العربي تعد من أعلى نسب الأمية في العالم، إذ تناهز ثلث عدد السكان (100 مليون نسمة)، أو 29.7% من جملتهم (حلي، 2008).

ضعف صناعة النشر و غياب صناعة القارئ :

وفقا لتقارير إتحاد الناشرين الأمريكيين (Association of American Publishers (AAP)، للعام 2008، وصلت أرباح الناشرين بالولايات المتحدة الأمريكية وحدها إلى 24 مليار و 255 مليون و 25 ألف دولار (AAP, 2010)، هذه إنما الأرباح التي تعني وتؤكد وجود صناعة للنشر ناجحة في هذا البلد الواحد! أما عن حجم صناعة النشر في العالم العربي مجتمعاً ومداولات سوق الكتاب فيه بيعا وشراءً، فلا تتجاوز 4 ملايين دولار أمريكي سنويا، وفيما يصل عدد النسخ المطبوعة من الكتاب العربي الواحد من 1000 إلى 5000 نسخة، نجد في مقابلها 85 ألف نسخة في دول الغرب (فؤاد، 2010). يؤكد لنا الأستاذ الناشر فتحي البس مدير دار الشروق للنشر والتوزيع في حوار له مع الصحفي والكاتب رشاد أبو شاور (جريدة صوت العروبة - جريدة عربية تصدر بالولايات المتحدة الأمريكية)، كم تعاني صناعة النشر العربية من أزمة خانقة تتفاقم باستمرار، بعد أن أصبح الكتاب في رأس سلم قائمة الشطب عند الأزمات، وفي آخر سلم المشتريات في حالة الرخاء! و يؤكد كذلك على احتياج الكتاب، كمنتج ثقافي خاص، إلى سوق واسعة، ولكن للأسف، فإن سوق الكتاب العربي مقطعة الأوصال، بين أجزاء متفاوتة في السعة والقوة الشرائية، ومستوى التعليم والثقافة، وتطبق فيها قوانين مختلفة، سواء من حيث الرقابة، أو من حيث الاستيراد والتصدير، فأحيانا يصدر الكتاب وينتظر أعواما ليدخل إلى بعض الدول بسبب صرامة الرقابة وضيق أفقها، أو بسبب عدم توفر الخدمات اللوجستية، على العكس تماما من ما نراه في تحرك المخدرات والأسلحة عبر الحدود العربية بسهولة أكثر من الكتاب! كذلك يؤكد البس على الدور الخطير الذي تلعبه مشكلة التوزيع في هذه الصناعة، إذ يؤكد أن دور توزيع المطبوعات، وكذلك المكتبات المتخصصة في بيع الكتب تعد قليلة جدا، خاصة في ظل انتقاء الموزعين وأصحاب المكتبات للكتب الأكثر مبيعا، في نظرهم، وبالتالي لا تجد الكثير من الكتب الجادة فرصة للعرض داخل البلد المنتج، أو في البلدان الأخرى. لذلك يقبل الناشر على الاشتراك في المعارض، خاصة الأجنبية، حيث تنجو الكتب "أحيانا" من قبضة الرقابة ويتمكنون من عرض إصداراتهم، لكن للأسف، حتى المعارض أصبحت لا تحقق الهدف، حيث تلجأ إدارات المعارض إلى فرض رسوم اشتراك مرتفعة جدا، تشكل مع كلف الشحن والسفر والإقامة، عبئا ماليا كبيرا، خاصة وأن الإقبال على هذه المعارض بدأ يتراجع بشكل ملحوظ، ويضيع المشتري الجاد بين آلاف العناوين فلا يحظى الكتاب بفرصة معاينة واسعة. للأسف الشديد، لقد ولت تلك

الأيام التي كانت الدول تستضيف الكتاب وناشريه وتتعامل مع المعرض على أنه تظاهرة ثقافية تنفق عليه لإنجاحها. حتى الدول الغنية بدأت تفكر بتغطية مصاريف موظفيها وأجهزتها من اشتراكات الناشرين. في نفس الوقت يطالب الناشر بتقديم حسومات للقراء. كل ذلك أفرز ظاهرة خطيرة وهي البيع بأسعار مرتفعة لتغطية الكلف، وكذلك إلى ظاهرة فساد خطيرة حيث يلجأ البعض إلى رشوة أعضاء اللجان المكلفة بالشراء، فيكون الشراء مكثفا من أجنحة وضعيفا في أجنحة أخرى. يترافق ذلك مع ظاهرة العزوف عن القراءة لأسباب كثيرة أهمها نظام التعليم التلقيني والقدرة الشرائية المتناقصة لدى المواطن العربي وحالة الاحباط والقهر من الظروف العامة وسقوط المشاريع الفكرية الكبرى (أبو شاور، 2008).

يؤكد الشاعر و الكاتب فتحي عبد السميع، أمين عام أدباء مصر، أنه ينبغي علينا النظر في فكرة معارض الكتب في إطار متكامل، يشكل فيه القارئ مركز الدائرة، فكل ما يرتبط بالكتب يبقى بلا قيمة من دون القارئ، فهو القلب إن سكن كل شيء، و إن نبض نبض كل شيء، و إذا نظرنا إلى القلب، و هو القارئ هنا، لوجدناه مصابا بكل الأمراض. أن نسبة الأمية العالية في العالم العربي دليل واضح على غياب صناعة القارئ، و غياب هذه الصناعة هي بكل تأكيد نتيجة منطقية لانتشار الأمية، فالمرء لا يولد قارئاً بالفطرة، بل في حاجة إلي تعليم كيفية و مهارة القراءة. في الغرب مثلا، نري كم يكون الكتاب ملازما للفرد أينما يتوجه و ينتقل، وقد ينسي الكثير أو البعض من الزاد، إلا أنه لا ينسي أبداً - هكذا يجب أن يكون - خير الزاد، الكتاب، و قد يكون هذا ما يفسر لماذا تعد صناعة الكتاب صناعة رائجة و مزدهرة للغاية في الغرب (شبلول، 2009).

في مقولة شهيرة للكاتب الفرنسي فولتير، عند إجابته عن سؤال وُجّه له عن سيقود الجنس البشري مستقبلا، أجب: الذين يعرفون كيف يقرؤون! أن المتأمل جيدا لإجابة فولتير، يدرك أن الأمر ليس فقط في أمر نقرأ، و إنما في "كيف نقرأ" أيضا، أعني أننا نقرأ كثيرا، و لكن هل نقرأ بطريقة صحيحة، و هل لو قرأنا بهذه الطريقة، هل نعي ما نقرأ؟ هل نتحقق من ما نقرأ؟ هل نتعلم من ما نقرأ؟ هل نحقق الهدف من ما نقرأ؟ لو كانت الاجابة علي كل ما سبق، أو حتى على بعض منها، هل كان حالنا و وضعنا نحن العرب هو ما نحن عليه الآن من تأخر و تخلف؟! أظن الاجابة ليست خافية على أحد، و الذي يري غير ذلك، فهو بالتأكيد لا يري! لو قرأ العربي و أنتفع بما قرأ، لانعكس ذلك - بكل تأكيد - على حياته و عمله و دراسته. هناك بعض من الدلائل و المؤشرات التي تظهر وضع الإنسان العربي و مكانته بين أمم سعت للقراءة و أحببتها فأنتجت و ازدهرت، أما أمة "تقرأ" هربت من أن تقرأ، فتخلفت و تراجع و عاشت - و لا تزال - على التسول العلمي و الثقافي و التكنولوجي، فضلا عن المجالات الحياتية الأخرى! في تقرير خطير للتنمية البشرية الصادر عن الأمم المتحدة، تظهر البلاد العربية - مجتمعة - في ذيل قائمة بلاد العالم من حيث متوسط القراءة لكل فرد، فوفقا لإحصائيات وتقارير التنمية البشرية، كما تنقل لنا الكاتبة أمل فؤاد (مجلة آخر ساعة المصرية)، يساوي متوسط القراءة لكل فرد في المنطقة العربية عشر دقائق في السنة (!؟)، و معدل القراءة لديه ربع صفحة (!؟)، مقابل 12 ألف دقيقة في السنة للفرد في الغرب! و معدل الكتب 11 كتابا للأمريكي و 7 كتب للبريطاني، كما يصل عدد ما يقرأه الاسرائيلي سنويا إلي 7 كتب أيضا!، أنه لا يزيد الوقت المخصص للقراءة الاطلاعية عند الطفل العربي، دون احتساب وقت القراءة المدرسية، علي 6 دقائق في العام!، أما حجم الكتب المخصصة له، فهو 400 كتاب في السنة مقابل 13.260 كتاب للطفل الأمريكي و 3838 للطفل البريطاني و 2118 للطفل الفرنسي و 1485 للطفل الروسي، و المحزن حقا أن عدد الكتب المطبوعة في أسبانيا سنويا يوازي ما قام العرب بطبعه منذ عهد الخليفة المأمون العباسي حتى يومنا هذا (!؟)، و أن ما تستهلكه دار نشر فرنسية واحدة من الورق يفوق ما تستهلكه مطابع الدول العربية مجتمعة (!؟)، و أن إجمالي ما تنتجه الدول العربية لا يساوي أكثر من 1.1 بالمائة من الانتاج العالمي من الكتب، بينما نسبة سكان الوطن العربي إلي نسبة سكان العالم هي 5.5 بالمائة! (فؤاد، 2010).

في تقرير خطير أيضا صادر عن المنظمة العالمية للملكية الفكرية العام 2008، و أوردته قناة الجزيرة، يتبين لنا العجز العربي الواضح في اللحاق بالركب العالمي في مجال الإبداع و الابتكار، الذي هو بما لاشك فيه مجالا قائما على القراءة و انعكاسا حقيقيا لها أيضا، فيرصد لنا التقرير وضعنا العربي في هذا المجال، إذ حصلت الدول العربية (350 مليون نسمة) مجتمعة على 173 براءة اختراع في عام واحد (2008)، في حين سجلت إسرائيل (6 مليون نسمة) - العدو التاريخي للعرب والمسلمين - وحدها في نفس العام أيضا، رصيذا وصل إلى 1882 براءة اختراع (نعم، إسرائيل، التي تصرف 2500 دولار على تعليم و تأهيل الفرد، مقابل 340 دولاراً عند العرب، و التي تخصص (إسرائيل) أيضا أكثر من ستة مليارات دولار للبحث العلمي بما يوازي 4.5% من ناتجها القومي، أما الوطن العربي مجتمعاً فيخصص ملياراً ونصف المليار تقريباً أي أقل من 3.3% (ثلاثة من عشر في المائة فقط) من ناتجها القومي! الأمر الذي جعلها (إسرائيل) تتبوأ مكانات رفيعة و مرموقة عالميا علي صعيد التأليف والنشر، فقد كشفت الدراسات أنها باتت الدولة الأولى في العالم في مجال النشر العلمي مقارنة بنسبة السكان، فعدد العلماء الناشرين للبحوث العلمية قد وصل إلى 711%). من الجدير بالذكر، أن اليابان كانت قد أتت في المقدمة برصيد 28774 براءة اختراع، تلتها ألمانيا برصيد 18428، ثم فرنسا (6867)، فبريطانيا (5517)، فهولندا (4349)، فالسويد (4114)، فسويسرا (3832)، فكندا (2966)، فييطاليا (2939)، ففنلندا (2119)، فأستراليا (2028) (قناة الجزيرة الإخبارية، 2009).

حول انعدام القراءة لدي العرب، ذكر الدكتور عبد القادر حاتم وزير الإعلام المصري السابق أنه كم تأثر و تألم كثيرا للمقولة الشهيرة التي كان يرددتها القائد الإسرائيلي الأشهر في تاريخ إسرائيل "موشي ديان"، الذي قال "مادام العرب لا يقرؤون، فما هناك من خطر حقيقي يهدد دولة إسرائيل"، أو كما ينقلها عنه الآخرون: العرب أمة لا تقرأ"، الأمر الذي دفع كل من وزير الإعلام (الدكتور عبد القادر حاتم) و وزير الثقافة (الدكتور ثروت عكاشة) في ذلك الوقت إلى الرد الصحيح، خاصة بعد الهزيمة التي لحقت بالجيش المصري عام 1967، ليبتلا ما كان يحلو لديان ترديده و التغني به أمام العالم، إذ عهد وزير الإعلام، من ناحية، لإنشاء مراكز ترجمة كبرى تعني بترجمة الكتب الأجنبية، خاصة الإسرائيلية، تحت هدف "أعرف عدوك" (فؤاد، 2010)، و عهد وزير الثقافة، من ناحية أخرى، إلى الدكتورة سهير القلماوي، أول سيدة مصرية تحصل على درجة الدكتوراه من الجامعات المصرية، و التي كانت تشغل وقتها رئيس هيئة الكتاب، إلى ضرورة إقامة معرض دولي سنوي للكتاب يُقام في العاصمة المصرية ليعبر عن قوة مصر الثقافية، و قد كان ذلك في العام 1969، و أُسندت مهمة رئاسته لها، ومنذ هذا التاريخ (1969) حتى وقتنا الحالي (2010)، لم ينقطع المعرض أو يغيب، حتى في ظل ما شهدته مصر بعد ذلك من حروب و كوارث و أحداث اقتصادية عصيبة كادت تفتك بالمعرض، و كم كان جميلا من إدارة المعرض في دورته الأربعين، عندما قرر الاحتفاء بمرور 40 عاما على قيامه، أن يحتفي بالدكتورة سهير القلماوي، كأول رئيس له بتكريمها و اتخاذها شخصية المعرض في هذه الدورة. لقد لخص الناشر فتحي البس ظاهرة عزوف المواطن العربي عن القراءة لأسباب كثيرة، أهمها نظام التعليم التلقيني والقدرة الشرائية المتناقصة لدى المواطن العربي وحالة الإحباط والقهر من الظروف العامة وسقوط المشاريع الفكرية الكبرى.

الرقابة و المصادرة:

تعد مشكلة الرقابة على الكتب و مصادرتها في بعض الأحيان واحدة من أهم المشاكل و التحديات – إن لم تكن الأهم على الإطلاق – التي تواجه المطبوع العربي بوجه عام، إبتداءً من التفكير فيه مرورا بتأليفه إنتهاءً بنشره فتوزيعه و عرضه. على حد قول الصحفية إستبرق أحمد، لا تعد هناك أي أهمية لوظيفة الرقابة في الدولة، و بالتالي لا أهمية أو نفع لهؤلاء الموظفون العاملون بها، بل أنهم يستنزفون كثيرا من ميزانية الدولة خاصة في ظل هذه الثورة الخارقة في عالم الاتصالات التي تفتح الباب علي مصراعيه لكافة المعلومات المختلفة بالنفاذ إلى الأفراد، دون أي رقابة تستطيع إيقافها (أحمد، 2009). أن من المفارقات الطريفة التي شهدتها الرقابة على الكتب في الدول العربية، كما ينقل – ضاحكا – رضا عوض صاحب دار رؤية للنشر و التوزيع لأميرة الطحاوي، ما شهدته كتاب خاص بالطهو، كان يوزعه عوض في أحدي المعارض العربية قبل نحو 15 عاما من وقوع مصادرة له، و عندما أستفسر عن سبب المصادرة، أندھش عوض بشدة من تفسير إدارة المعرض التي قامت بمصادرة الكتاب بأن الكتاب كان يحمل غلافا لتورته (قالب حلوي)، و قد زُين بنجمة سداسية، مما فسر على أنه يمثل دولة إسرائيل (الطحاوي، 2008). في حقيقة الأمر، هناك علاقة بين الرقابة و المصادرة، فلو رأت الرقابة سببا ما يمنع من عرض الكتاب، يتم ذلك دون أن يلحق الكتاب بالمعرض أصلا، و إن أكتشف عرض الكتاب بعد عدم إجازته للعرض، يتم هنا مصادره كنتيجة منطقية و طبيعية، و لكن أن تتم عملية المصادرة بعيدا عن أسباب منطقية أو حتى أسباب حددتها الرقابة، فهذا يُعتبر بحق تعد شديد الخطورة علي الفكر لتحقيق مأرب و مصلحة ما لفكر أو توجه معين.

كذلك، يؤكد عوض أن المبدع نفسه يراقب عمله، ممارسا بذلك بما يُعرف بـ “الرقابة الذاتية”، و قبل أن يبدأ فيه، أو حتى أثناء العمل فيه يضع – بقصد أو بدون – مرعيات و ضوابط المجتمع الذي يعيش فيه نصب عينيه. قد نتدخل أحيانا لمعالجة أي تشوهات تلحق بالجنين في رحم أمه، أو حتى بتعديل وضعه، و لكن يتعذر الوضع – في أحيانا كثيرة – بأن تتم مثل هذه المعالجة أو هذا التعديل بعد الولادة و إخراج الجنين إلى الحياة. هذه نفس فكرة العمل الإبداعي الذي يُمكن التحرك بشأنه أثناء تأليفه، و لكن إن خرج للتداول و للعرض في المكتبات و يُصدر، فهو أمر مرفوض، خاصة أنه قد تم الترخيص له رقابيا و إجازته للتداول، و لا أظن أن هناك ناشرا عاقلا يصير على نشر عمل ما و هو يعلم أنه لن يحقق له أي عائد يُذكر، حتى و لو كان عائدا أدبيا، أو أنه يقوم بنشر عملا ما و هو يعلم أن أمره سيؤول إلى المصادرة!

في موقف آخر يؤكد خطورة الفكر الرقابي المتأصل في عقليات و نفوس الحكوميين العرب، تروي لنا الكاتبة بدرية الشطي في مقال لها بجريدة الشرق الأوسط السعودية، جاء تحت عنوان “جدار الرقابة”، تروي تذكراها الجيد لما قام به أحدي موظفي مطار الرياض الدولي منذ عشر سنوات تقريبا بكسر مجسم صغير لوجه فيلسوف إغريقي كان بحوزتها، معنأ – كما تقول – في تأكيد سلطته الوظيفية، التي أكدت كم أنها كانت لا تنسجم أبدا مع مفهوم إهانة البشر، و كذلك تذكراها لأحدي موظفي مكتب الرقابة في المطار نفسه، الذي سألها عن تلك الكتب التي كانت بحوزتها، و عن طبيعة هذه الكتب و أسئلة أخرى بعيدة تماما عن طبيعة عمله كموظف مسئول، كتلك الأسئلة المتعلقة بمرجعها القبلي على سبيل المثال، و كذلك ما إذا كانت تحمل تصريح من الجامعة، التي كانت تدرس فيها لدرجة الماجستير، أو أي جهة يُمكن الرجوع إليها، بالرغم من أنها قد نقلت إليه إنها تعمل باحثة اجتماعية، الأمر الذي يدفعها لقراءة الكثير من الكتب المتعلقة بمهنتها بجانب تحضيرها لدرجة الماجستير (البشر، 2005). الموقف نفسه – إن لم يكن أفضح – كان قد حدث معي أثناء أحدي إجازتي الصيفية لمصر قادمة من الكويت، على وجه التحديد، صيف 2009، عندما كنت أحمل معي في حقيبة الحاسب المحمول هارد ديسك متحرك (سعة واحد

تيرا بايت)، الذي كان ملفتا للنظر، نظرا لكبر حجمه، الأمر الذي أسال لعاب أحدي موظفي مطار القاهرة الدولي المكلفين ليكونوا أول من تصطم بهم عند دخولك مصر، مما أدي إلى إثارة "حفيظته الأمنية"، و سألني عن أهمية تحركي بمثل هذه "المستودعات المعلوماتية" الكبيرة، التي يمكن لها - كما تخيل هو خاصة بعد أن عرف مني حجم الديسك (أكثر من تريليون بايت) أن "تغرق البلاد" على حد تعبيره!!! و ما كان منه إلا الاصرار على تشغيل القرص للتأكد من أن ما بداخله من معلومات "يتسق" و "يتفق" مع النظام العام للبلاد!!! مع إنني كنت قد شرحت له طبيعي عملي - المدونة أصلا في جواز سفري - لكن بلا أدني اكتراث منه و من كان معه، و كم كانت مهزلة عندما قام بالإطلاع و بعض من معه على كل ملفاتي و أعمالي و محاضراتي و مشاريعي البحثية، و حتى صوري و صور أسرتي الشخصية، و كم أحمد الله على أنني كنت لا احتفظ - وقتها - بأي شيء يُمكن أن يقودني إلى ما لا تُحمد عقباه، ك مقاطع فيديو ذات صلة بحقوق الإنسان أو أي مقالات أو قصائد شعر أو أي أغنيات ممنوعة! ألم يعلم هؤلاء الموظفون بمطاراتنا العربية المنتشرة بكثرة هنا وهناك أننا نعيش الآن عصرا مفتوحا على مصراعيه، عالما بدون جدران أو حدود تعزله عن بعضه البعض، عالما ذابت فيه معاني العزلة و الإغلاق، فكيف يتوهمون أن "يراقبون" فكريا طائرا بألف جناح يطير و يحلق بهم هنا و هناك، و كيف لهم أن يتتبعون قلما مسافرا فوق الحواجز و المتاريس يستطيع النفاذ بسرعة أسرع من الضوء إلى أي مكان بالعالم، مخترقا ما بلغته هذه الحواجز و هذه المتاريس من قوة و حصانة!

أن الرقابة في بلادنا العربية بوجه عام، و في معارضنا العربية للكتاب بوجه خاص إنما تتم تحت عدة ذرائع، تارة أخلاقية و تارة أخري دينية و تارة أمنية و تارة أخري سياسية، هذا في الوقت الذي نري فيه كافة الدساتير العربية - بلا استثناء واحد - "تدعي" بأنها تكفل حريات الفكر و التعبير و النقد، و إن كانت تقوم بذلك حقا، و لكن في ظل ما يروق لها من طرق في التطبيق للأنظمة التي تتبني و ترعى هذه الدساتير! إن أردت البحث في أي محرك بحث على الانترنت على كلمة "رقابة" أو "مصادرة"، ستجد ملايين النتائج، التي يبلغ نصيب العالم العربي منها 90% على الأقل، إن لم يكن أكثر! و إذا نظرنا إلى الكتب التي تصادها أنظمتنا العربية، لوجدنا نسبة كبيرة منها تتم مصادرتها اعتمادا على عنوانها، الذي قد يتخذها أو يتبناه المؤلف، أو حتى قد يقترحه الناشر بأن يكون براقا أو ملفتا، و ذلك ضمانا لتحقيق نسبة مبيعات كبيرة، و هما لا يعرفان بأنهم بذلك قد يدفعان بالعمل إلى المصادرة نظرا لتمايزه البين حتى و لو كان ذلك في عنوانه فقط، أو حتى في صورة الغلاف الخاصة به، كما رأينا في المثل أعلاه. أكاد أتذكر موقفا خاصا بالرقابة معي، كم كان عصيبا عليّ في شدته و في وقعه و أيضا في نتائجه، و ذلك جراء تفكير صادق مني في الإيقاظ من العفن التي تشهده جامعاتنا و مؤسساتنا العربية على صعيد التدريس و وضع الاختبارات! كان ذلك أثناء انتدابي للتدريس بقسم تكنولوجيا التعليم بكلية التربية النوعية بجامعة جنوب الوادي بمدينة قنا المصرية (صعيد مصر)، و ذلك لتدريس مقرر "بناء و تنمية المقتنيات"، و كان ذلك في شتاء عام 2006. و نظرا لأن المادة "كلامية" و أيضا "جدلية" في طبيعتها، و كم أنها في حاجة للتدليل و الاستشهاد بمواقف و خبرات المكتبات و أمنائها في عملياتهم الخاصة تجاه بناء و تنمية مقتنيات مكتباتهم، أحضرت سؤالا مقاليا يحث الطلاب (بنين و بنات) على التفكير فيما يفعلون لو أسندت لهم مهمة أمانة أو إدارة مكتبة ما في أحدي الأماكن النائية بمصر، و وضعت أمامهم الدورية الشهيرة التي تُصدر في لندن و تحمل عنوان "التربية الجنسية" - لإيماني الشديد بأن مثل هذه الدورية قد تقابل المكتبة أثناء عملية التزويد الخاصة بها، كمكتبات كليات التربية و الطب و الفنون، على سبيل المثال، التي تكتظ بموضوعات تشبه موضوع الدورية أعلاه، بجانب رغبتني في معرفة كيف يفكر الطلاب في مثل هذه المقتنيات. و طلبت من الطلاب اتخاذ قرارا بشأن هذه الدورية، هل تُقبل لكي تكون ضمن مقتنيات المكتبات؟ أم تُرفض و تُستبعد؟، و طلبت كذلك منهم أن يبينوا الأسباب الجوهرية لقبولهم

الدورية أو حتى لرفضهم لها! و لضمان واقعية السؤال و الامتثال له كحالة حقيقية أمام الطلاب و يُراد البت فيها، أرفقت مع السؤال - مستعينا بموقع الدورية الرسمي على الانترنت - صورة للغلاف، التي تكتسي به الدورية، والذي كان متاحا أيضا على موقعها على الانترنت، و كانت الصورة في شكل سريالي، يعبر عن مزيج شكلي و لوني، ليس أكثر، كطبيعة أي غلاف تكتسي به أي دورية! و لأن الطلاب جميعا كانوا متوقعين و مدركين لنوعية هذه الأسئلة مني، لحديثنا المستفيض عن مثل هذه القضايا في التزويد بالمقتنيات في المكتبات المصرية على وجه الخصوص، تعاملوا مع الإجابة بشيء من الحب و الانسجام، خاصة و أن كل الطلاب كان قد أدركوا أنهم في نضال لإثبات و جهة نظرهم حيال قبول أو رفض هذه الدورية. و لكن يشاء القدر أن يمر عميد الكلية بنفسه، لا أعرف بالصدفة أم أنه أتى للإطلاع على ورقة الاختبار، التي رُوج لها في جميع أنحاء الكلية بأبني "قد وضعت امتحانا في "الجنس" لطلاب الكلية المحافظين"، و أنني لم أكتف بذلك، بل قمت بوضع صور "إباحية" ل "أعضاء جنسية صريحة" لتقليب و إثارة الطلاب - هذا ما كان يُقال بالضبط - و ما كان من العميد "العالم" و "المعلم" و "الفاهم" و "المتفهم" إلا أن قام باستدعاء "الأمن"، و لا أعرف في الحقيقة من أستدعي من؟! بالرغم كونه عميدا لكلية تكتظ بكثير من اللوحات السريالية و الأعمال الفنية (كلية التربية النوعية)، لم يقف سيادته بالمرّة عند فهم الشكل الموجود بجانب السؤال، و لا حتى قام بتوجيه سؤالاً لنفسه: أ يُعقل أن يقوم مدرس مقرر - أي كانت قواه العقلية - بوضع صور جنسية صريحة - كما حب و أحبوا أن يروا ذلك - و أين، في اختبار رسمي موجه للطلاب في قاعة اختبارات كبري مراقبة من قبل مدرسين و موظفين آخرين بالكلية!!! على كل حال، أنتهي وقت الاختبار، و بدلا أن يطلبني العميد "للحوار" معه حول الموضوع لو احتكنا في ذلك للعقل و لمبادئ و أصول الاختلاف في وجهات النظر، تجنبني ذلك بالمرّة و قام باستدعاء الطلاب و "نهرهم" بشدة - بلا أي نوع من أي حوار يحفظ حق طالبنا العربي - لأنهم لم يطلبوا إلغاء الامتحان، إلا أن سيادته قد تفاجأ برد قوي - لم يتوقعه - من قبل الطلاب بأن السؤال كان من صميم المنهج و أنني كنت قد دربتهم على مثل هذه الأسئلة و على مثل هذه المواقف، إلا أن سيادته لم يروق له ما سمعه من الطلاب، فكان يريد أن يسمع شيئا على هواه، و قام بالتحفظ على ورق الاختبارات، و كما قيل، أن الأمن (!؟) قد أجبره على تأديبي، و حتى يتم ذلك، كان لزاما عليه مخاطبة رئيس الجامعة رسميا بصورة من "اختبار الجنس" الخاص بي (!!!؟)، و بالفعل تم، و الذي على أثره تم "تحقيق" رسمي في "أهدافي" و "نواياي" من وضع مثل هذا الاختبار، و كانت الجامعة بكافة كلياتها بل و كثير من الجامعات المصرية الأخرى في وضع "ترقب" عن ماذا سوف تكون عليه النتيجة حيال هذا "الأثم" الكبير الذي قام به هذا "الخارج" الأكبر عن "خط المجتمع"!! و تم التحقيق، و كانت النتيجة "معروفة و معلنة مسبقا"، إذ كان المحقق يشغل منصب المستشار القانوني لرئيس الجامعة، و الذي لم يتفهم بالمرّة لهدفي الحقيقي من الاختبار، الذي كان يكمن في "إيقاظ" الطالب من سباته العميق و أن يتناول الأمور بتفكير صحيح و أن يعرض الإجابة على الأسئلة بصدق و واقعية و شفافية. كان الأجدر بالمحقق أن يشكل لجنة متخصصة من أصحاب التخصص، و ما أكثرهم في مصر، للوقوف على الأمر و مناقشة و تفهم المقرر و الأسئلة التي من الممكن أن تترجمه، إلا أن هذا لم يحدث بالمرّة، و تمت إدانتني بعقوبة "اللوم" ...!!! لماذا؟ لأنني قد فكرت في تغيير نمطية متخلفة متبعة في طرح الأسئلة ... لماذا؟ لأنني أردت الخروج بالطالب و الطالبة من ذلك النفق الضيق في فهم الأمور و التعامل معها... لماذا؟ لأنني أحببت أن لا أكون "تقليديا" في التفكير و التدريس و الأنشطة الطلابية! للأسف الشديد، لقد امتدت أيدي الرقابة و المصادرة لتنال من كل شيء في عالمنا العربي، ليس فقط في مجال المطبوعات و التفكير و التعليم و حتى في وضع أسئلة الاختبارات، بل في مجالات أخرى كثيرة! أي مجتمع هذا الذي يُصادر فيه فكر أفراد نتيجة لإقدامهم في "تحريك" و "تغيير" الساكن من الأمور السيئة و المتخلفة التي تنعم بها و تعيشها بلادنا العربية و كلنا - للأسف الشديد - نعي ذلك و لا نحرك ساكنا.. و لماذا نحرك و نحن نعلم أن هناك

”لوما“ منتظرا، إن لم يكن أكثر من ذلك!!! نسيت أن أذكر أن الاختبار قد وُزعت أوراق أجابته على مدرس آخر، الذي ”أُجبر“ على التخلص من هذا الاختبار حتى و لو بمنح الطلاب أعلي الدرجات، و بالفعل تم، و حصل كثير من الطلاب على درجات عالية بطريقة عشوائية لا تعبر عن الحق أبدا، أو عن تعب هؤلاء الطلاب في مذاكرة المنهج، وإنما تترجم ذلك ”التراخي الشديد“ و المهانة الأشد من قبل هذا المدرس، الذي هادن الموقف للفوز بشيء ما في الضمير باعتباره ممثلا لمدرسة الرقابة و تلميذا نجيبا في فصل المصادرة بها!!!

على كل حال، مهما بلغت قوة الرقابة و صرامة و بطش المصادرة، إلا أن هذا لا يمنع أبدا وصول الفكر و المطبوع في النهاية إلى الفرد ليقراً و يتعلم، خاصة في ظل ما ينعم به هذا العصر من تكنولوجيا كبيرة و عظيمة عملت على إذابة جليد الجهل و فكت هذا الانغلاق الضيق الذي وُضع ليخدم أصحابه فقط. في بعض الأحيان، كم يكون الرقيب على الفكر أو المصادر لرأي، المضمون: خير داعم في إشهار الإصدارات و الأعمال الفكرية و إدخال أصحابها دائرة الضوء من أوسع الأبواب، خاصة في ظل فضول القراء لمعرفة أسباب تدخل الرقابة علي الأعمال و منعها أو حتى مصادرتها، عملا بالقول المشهور ”المنوع مرغوب، و هذا ما قد حدث معي بالفعل“!

معارض الكتاب العربية: دعوة زائر لإصلاح ما تبقي من الشكل و المضمون :

بعد زيارتي لبعض معارض الكتاب الأجنبية و العربية، أتقدم بمجموعة من الأفكار والاقتراحات، مطالبا كل من يعمل في معارضنا العربية للكتاب، سواء على الصعيد الإداري أو التنظيمي أو ما شابه ذلك، بالتفكير و النظر فيها بشيء من الجدية، بهدف إصلاح ما تبقي لنا، على الأقل في ملامح الشكل و المضمون:

– ضرورة تطوير ”البنية الثقافية“ للبلد الذي يُقام فيه المعرض، و ذلك من حيث إنشاء المكتبات أو تدعيم الموجود منها بالفعل، و كذلك تعزيز دور النشر، فلا يُعقل أن يُعقد معرضا دوليا للكتاب في بلد يفتقر لوجود المنشآت الثقافية المناسبة، كالمكتبات و دور النشر، و التي يجب أن تتناسب مع حدث جليل مثله، مع إقامة الندوات و تعزيز و تنشيط حركات التأليف و الترجمة من و إلي اللغة العربية، و العمل على التعريف بالأخر و فهمه و تقديره و تقدير الاختلاف معه ”ثقافة الاختلاف“!

– تحديد الهدف الرئيس للمعرض و العمل على تحقيقه بدلا من أن يصبح هدفا للنزهة و التسكع و لقاء هذا بذاك لاحتساء مشروب أو للمشاركة في أحدي الوجبات، حتى لا يطيح ذلك عن الهدف الاساس الذي أقيم من أجله المعرض.

– إعادة النظر بعمق في المواقع الحالية لمعارض الكتاب العربية لكي تكون أكثر ملائمة، بجانب تخصيص الموقع لعرض الكتاب فقط و ما يحيط بذلك، على أن لا يمتد لأي مادة أخرى، فلا يُعقل أن يكون المكان المخصص لعرض الكتاب هو نفسه ذلك المكان المخصص أيضا لعرض الأثاث مرة و عرض الأجهزة مرة أخرى، و هذا ما نشهده بوضوح في أرض المعارض بمدينة نصر بالقاهرة، التي حُصصت لتأوي معرض القاهرة الدولي للكتاب و لتأوي أيضا مواد و منتجات أخرى، كالسلع و الأجهزة و ما شابه ذلك، الأمر الذي خلق بدوره في ذهن الجمهور أن الكتاب صار كأي سلعة عادية تُباع و تُشتري و تجري عليها عمليات العرض و الطلب، و كذلك الفصال، و قد يكون هذا أحد الأسباب التي دفعت بالهيئة العامة للكتاب المسؤولة عن إدارة معرض القاهرة الدولي للكتاب بالتفكير – تحت ضغط كل من الناشرين و أيضا الجمهور – في تغيير مكان المعرض الحالي من أرض المعارض الحالية إلى قاعة المؤتمرات بمدينة نصر أيضا، أو إلى ساحة دار الأوبرا بين صندوق التنمية و مركز الترجمة، إلا أن هذا النقل تعثره مشكلة كبيرة تتمثل في التكلفة الكبيرة التي تصل إلى أربعة مليارات جنيهه مصري (734 مليون دولار

تقريباً)، على حد تقدير الدكتور حلمي النمنم، نائب رئيس الهيئة العامة للكتاب (المسئولة الأولى و المباشرة عن تنظيم و إدارة المعرض) أثناء محاورته الصحفية مع الصحفية فتحية الداخني (جريدة المصري اليوم المصرية) يؤكد الصحفي يسري حسان (جريدة المساء المصرية) الانتقال معرض القاهرة الدولي للكتاب لوجهته الجديدة بمثابة فرصة ليكون المعرض أكثر هدوءاً و تنظيماً بعيداً عن هذه "السوقة" – على حد تعبيره – التي تقام كل عام و تنفض دون أن يحدث شيء (الداخني، 2010)! من الجدير بالذكر، أن معرض القاهرة الدولي للكتاب ظل يُعقد منذ دورته الأولى، التي عُقدت في العام 1969 حتى دورته الخامسة عشر التي عُقدت في العام 1983 بأرض المعارض الدولية بالجزيرة، ولكن نظراً للإقبال الشديد الذي لاقاه، سواء على صعيد الدول المشاركة و الناشرين أو علي صعيد الجمهور الزائر، و كذلك نظراً للفعاليات و الأنشطة التي شهدتها و ضاقت بها تلك الأرض المخصصة له بأرض المعارض بالجزيرة (2000 م)، أتجه التفكير إلى زيادة رقعة الأرض لاستيعاب أكبر للناشرين و للجمهور، فكان الحل في النقل لمكان آخر، و كان المكان المقترح أرض المعارض بمدينة نصر (66000 م2)، و كان ذلك ابتداءً من دورته السادسة عشر، التي عُقدت في العام 1984 (جريدة الأهرام، 2008).

– تخفيف الرقابة – أي كان نوعها – مع العمل على تقليص دورها – إن لم يكن إلغائها – و العمل على تشجيع التفكير و الحوار بدلاً من ذلك.

– إسناد إدارة المعرض إلى شركة متخصصة في هذا النوع من الإدارة. أشاطر تماماً ما نقله الروائي و الكاتب علاء الأسواني لسارة سند الصحفية (جريدة اليوم السابع المصرية)، بأنه يجب أن يتولى إدارة معرض القاهرة الدولي للكتاب شركة خاصة متخصصة في أمور معارض الكتاب، مشيراً إلى أنه يجب أن يتجرد المعرض من القيد الحكومي، و ما يمثله هذا القيد من إعاقة واضحة للحركة الثقافية التي يجب أن يشهدها المعرض، فعلى سبيل المثال يجب تجريد المعرض من "العسكرة" التي تتم بها إدارته، خاصة في ظل نظام و قانون الطوارئ المفروض منذ 1981 (سند، 2009).

– ضرورة التنسيق التام في مواعيد عقد معارض الكتب المقامة في البلاد العربية، و العمل على منع أي وقوع أو تداخل بينها، حتى يمكن الاستفادة القصوى من كل معرض على حده، سواء من قِبل الناشر أو الزائر.

– الحاجة لمعرض عربي دائم للكتاب في كل عاصمة عربية بالتنسيق بين الدول العربية و بعضها البعض.

– إقامة معارض فرعية للمعارض الكبرى التي تُعقد بالعواصم العربية أو مدنها الكبرى، أو حتى محلية لكل مدينة، و ذلك تشجيعاً لانتشار الثقافة بها، و أيضاً تجنباً لمشاكل الازدحام التي يشهدها المعرض الرئيس أو المركزي الذي يُعقد بالعاصمة غالباً.

– إنشاء جريدة لكل معرض للتعريف به و بتفاصيل دورته، كأماكن و قاعات العرض المختلفة، و كذلك عقد ندواته و أنشطته، و كذلك أسعار و خصومات الناشرين، مع تقديم خدمات ثابتة في كل عدد يومي تصدره الجريدة من قِبل إدارة المعرض، كأرقام التلغونات الهامة بالناشرين و عناوينهم، و أسعار العملات المختلفة، و معرفة أحوال الطقس، و ذلك لمساعدة الجمهور الزائر، خاصة هؤلاء غير المقيمين بصورة دائمة في بلد المعرض.

– دعوة أصحاب الكتب المعروضة للحديث مع الجمهور، سواء في شكل ندوة مباشرة و مخصصة لهذا الغرض أو في رواق و قاعة دار النشر صاحبة إصدار الكتاب، إذ يساعد ذلك – بما لا يدع مجالاً للشك – كل من القارئ و صاحب العمل و الناشر أيضاً، فمن ناحية صاحب العمل و الناشر، تتحقق نسبة عالية من المبيعات بتوقيع صاحب العمل عليها، على سبيل المثال، فضلاً عن الترويج للعمل بصورة أسرع، و من ناحية الجمهور، يساعد ذلك في إقباله بطريقة أسرع علي العمل المؤلف، و كذلك الاهتمام بحفظ النسخة التي يوقعها من المؤلف شخصياً. كذلك، لا شك في أنه كلما زاد الأقبال على المعارض من المطبوعات،

كلما شجع ذلك المعارضين و الناشرين على تخفيض الأسعار و تقديم بعض العروض المناسبة، كسحن الكتب على سبيل المثال بلا مقابل أو شراء كتابين و الثالث بلا مقابل، أو أي شيء من هذا القبيل!

– دعوة المبدعين و المتخصصين بأمر و عملية القراءة للحدوث عن القراءة و أهميتها و محفزاتها و الكيفية السليمة التي تتم بها.

– تشجيع الطلاب على زيارة المعرض و حثهم على الاستفادة منه. أذكر إنني كثيرا ما أوجه الطلاب الذين أقوم بالتدريس لهم (قسم علوم المكتبات المعلومات بكلية التربية الأساسية بدولة الكويت) لزيارة المعرض و تصفح مقتنياته المختلفة و اختيار بعض منها و عمل كشافا لأحدها أو حتى مستخلصا، و ذلك مقابل درجات محددة تُحسب من أعمال و أنشطة المقرر العملية، أو حتى تُحسب كمكافأة للطالب و تشجيعا له على زيارة المعرض و بالتالي ارتباطه به.

– المراجع: القراءة التي كانت موجودة بمدارسنا قديما – إن كانت مُفعلة في الأصل – إلى سابق عهدها، مع تقديرها تقديرا كافيا و تعيين المؤهلين لتدريسها و إلقائها، و ذلك لغرس هذه الثقافة الهامة في نفوس الطلاب منذ الصغر.

المراجع :

تُعرف كلمة "حراج"، المتداولة بكثرة في دول الخليج العربية، خاصة دولة الكويت و المملكة العربية السعودية و دولة قطر، بالسوق الكبير لجميع البضائع، و لاسيما تلك البضائع المستعملة Flea Market. تعني كذلك مزاد علني Auction للمزايدة بين المنتجات بالمناداة عن طريق استخدام مكبرات الصوت الضخمة. يوجد منه أسواق صغرى لكل منتج مستقل أو لبعض المنتجات المتشابهة، كحراج السيارات، و حراج الملابس، و حراج الأثاث و حراج الأجهزة ... الخ.

1. AAP. (2010). Industry Statics 2008. AAP Reports Book Sales Estimated at 24.3 Billion in 2008. Retrieved February 16, 2010 from

http://www.publishers.org/main/IndustryStats/indStats_02.htm

2. Fattahova, N. (2007). Kuwait Book Fair next week. Retrieved May 16, 2008 from http://www.Kuwaittimes.net/read_news.php?newsid=NDkyNTY0ODg3

3. أبو شأور، رشاد. (2008). فضاءات عربية. أسترجم 5 مارس، من

<http://www.arabvoice.com/modules.php?op=modload&name=News&file=arti14956cle&sid=>

4. أحمد، إستبرق. (2009). معرض الكتاب .. احتفال يتيم بعالم يبتعد. أسترجم 24 فبراير، 2010 من

<http://alqabas.com.kw/ArticlePrint.aspx?id=548719&mode=print>

5. إلانصاري، ناصر. (2008). معرض الكتاب .. هدية مصر لمثقفي العالم!. أسترجم 10 أكتوبر، 2008 من

<http://www.elaph.com/ElaphWeb?Culture/2008/1/297343/htm>

6. بركة، محمد سيد. (2007). معرض القاهرة للكتاب .. سلبيات تعوق تطوره. أسترجم 14 فبراير، 2010 من

<http://www.islammemo.cc/print.aspx?id=31154>

7. البشر، بدرية. (2005). جدار الرقابة. أسترجم 24 فبراير، 2010 من

<http://www.aawasat.com/print.asp?did=338289&issueno=9878>

8. جريدة إلهرام المصرية. (2008). معرض الكتاب .. هدية مصر لمثقفي العالم! أسترجم 10 يونيو، 2008 من

<http://www.elaph.com/ElaphWeb/Culture/2008/1/297343.htm>

9. جريدة الشروق المصرية. (2010). إبراهيم المعلم في برنامج (حالة حوار): معرض القاهرة للكتاب سوق غير عصرية تخلو من

الجاذبية. أسترجم 14 فبراير، 2010 من

<http://www.shorouknews.com/print.aspx?id=175258>

10. جريس، سمير. (2008). شيخوخة ثقافية تحكمها الكتب الدينية. أسترجم 10 أكتوبر، 2008 من

http://www.qantara.de/webcom/show_article.php/_c367/_nr-437/i.html?PHPSESSID=5

11. حللي، عبد الرحمن. (2008). واقع إلامية في العالم العربي و مسؤولية عواصم الثقافة العربية. أسترجم 24 فبراير،

2010 من <http://www.almultaka.net/ShowMaqal.php?id=449&cat=16>

12. حسان، يسري. (1 فبراير، 2010). و المجاملات تفسد أنشطة المعرض .. كالعادة. القائمون عليها لا علاقة لهم

بالثقافة .. و لإسماء تتكرر كل عام. جريدة المساء، ص 7.

13. حمود، نايف. (2006). معرض الكتاب. أسترجم 26 يونيه، 2008 من
<http://www.sh3byat.com/vb//archive/index.php/t-13397.html>
14. حميدة، أحمد فوزي. (2010). معرض القاهرة للكتاب: امن وثقافة و تقصير. أسترجم 24 فبراير، 2010 من
<http://www.alqabas.com/kw/ArticlePrint.aspx?id=57568&mode=print>
15. الحوامدة، موسى. (2008). كمن يكتب شيئاً: عن معرض عمان للكتاب في دورته الجديدة. أسترجم 23 فبراير،
 2010 من <http://www.doroob.com/?p=28455>
16. الداخني، فتحية. (2010). حلمي النمنم نائب رئيس هيئة الكتاب: المعرض سوق لجمع الكتب فقط .. و الدورة
 الحالية ستشهد نقلة في النظافة و النظام. أسترجم 14 فبراير، 2010 من <http://www.almasry-alyoum.com/article2.aspx?ArticleID=241947>
17. سند، سارة. (2009). في معرض الكتاب .. إلامن قبل الكتاب و فوق المثقفين. أسترجم 17 فبراير- 2010 من
<http://www.youm7.com/News.asp?NewsID=67351>
18. شبكة النبأ المعلوماتية. (2007). معرض فرانكفورت الدولي للكتاب إلكبر من نوعه في العالم. أسترجم 14 فبراير،
 2010 من <http://www.annabaa.org/nbanews/66/418.htm>
19. شبلول، أحمد فضل. (2009). فتحي عبد السميع: ينبغي النظر إلى فكرة معارض الكتب في إطار متكامل يشكل القارئ
 فيه مركز الدائرة. أسترجم 17 فبراير، 2010 من <http://www.>
20. الطحأوي، أميرة. (2008). معرض القاهرة للكتاب بين المنع و الممانعة. العربية. أسترجم 10 يونيه، 2008 من
<http://arabic.rnw.nl/culture/culturbranch/07020801>
21. عبد الرحمن، لنا. (2010). ثقافة الهمبورجر.. هل سيتغلب عليها معرض القاهرة للكتاب؟ أسترجم 24 فبراير،
 2010 من <http://www.n-dawa.com/articles.php?cat=10&id=233>
22. العليان، يوسف. (2008). معرض الكتاب .. ثمة ما يبهج. أسترجم 16 يونية، 2008 من
<http://www.alriyadh.com/2008/03/18/articles326947.print>
23. فاضل، جهاد. (2010). معرض القاهرة للكتاب .. إلى متي يفقد للتطوير؟!
 24. فريد، محمد. (2008). معارض الكتاب في العالم العربي .. ما لها و ما عليها. أسترجم 24 فبراير ، 2010 من
<http://www.khaleejcal.com/arabic/portal/content/view/975/96>
25. فؤاد، أمل. (2010). هل تدأوينا معارض الكتاب و مؤتمرات الثقافة؟ - كيف نتجأوز التخلف إلى النهضة. أسترجم
 16 فبراير، 2010 من <http://akhbarelyom.org.eg/akhersaaNews.aspx?x=9934>
26. القصاص، جمال. (2010). معرض القاهرة للكتاب يقاوم أعراض الشيخوخة. أسترجم 14 فبراير، 2010 من
<http://www.aawsat.com/print.asp?did=556679&issueno=11398>
27. قناة الجزيرة إلابارية. (2009). العرب في ذيل قائمة براءات إلابتراع لعام 2008. أسترجم 3 أبريل، 2009 من
<http://www.aljazeera.net/news/archive/archive?ArchiveId=1173824>
28. مجلة العصر. (2008). الفكر إلاحمري منتقدا معرض القاهرة: أكثر الكتب المنشورة لا تصنع رأيا عاما و لا مجتمعا
 مثقفا. أسترجم 14 فبراير، 2010 من
<http://www.alasr.ws/index.cfm?method=home.con&ContentId=9839>

29. مغربي، جميل محمود. (2010). معارض الكتاب و العصر الحجري. أسترجم 17 فبراير، 2010 من <http://www.al-madina/print/213324>
30. الهرسان، مشعل. (2006). اتفاق على تطوير معارض الكتاب العربية و إلغاء الرقابة.. و اختلاف حول التوقيت. أسترجم 17 فبراير، 2010 من <http://www.aawasat.com/print.asp?did=349299&issueno=9947>
31. وزارة التعليم العالي السعودية. (2007). دليل المعارض الدولية للكتاب(2007). أسترجم 30 مايو، 2009 من www2.mohe.gov.sa/exhibition/Guide2007.doc